

القيم بين الانهيار و البناء سماحة الشيخ أمجد الاحمد

قال تعالى (وإن قال لقمان لابنه وهو يعطيه يا بني لا تشرك بالله إنما الشرك لظلم عظيم).

ما هي القيم؟

بداية لا بد أن نعرف القيم، القيم جمع قيمة، وقد ورد لها في اللغة استعمالات عديدة، فتستعمل بمعنى الثمن المادي للسلعة، وتستعمل في الأمور المعنوية، يقول تعالى (فيها كتبٌ قيمة) أي ذات قيمة معنوية لأنها تحمل الحق، وتأتي بمعنى الاستقامة كقوله تعالى (ذلك الدين القيمة) أي المستقيم الذي لا عوج فيه، وجاءت بمعنى الثبات والاستمرار، في قوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ذلك الدين القيم)، أي الثابت في نفس الإنسان.

أما في الاصطلاح فقد عرّف علم الاجتماع والتربية القيم بأنها مجموعة من الأفكار والمفاهيم المعيارية لمقاييسة سلوك الإنسان. لكي نحكم على سلوك الإنسان بأنه جيد أو سيء تحتاج مجموعة من الأفكار والمعتقدات تحتكم إليها وتسمى قيم.

■ مثلاً قيمة العدل، إذا اقتتنع الإنسان بها فإذا نازعته نفسه بأخذ شيء من حقوق الآخرين يرفض ذلك لتناقضه مع قيمة العدل، فالعدل هو المعيار، وإذا رأى بأن للآخرين حق سعي لبذلته وتقديمه لهم.

منابع القيم

ما هو المصدر الذي نستنبط منه القيم التي نؤمن بها ثم نجعل سلوكنا على منوالها؟

هذه المسألة تمثل محطة افتراق بين المنظومة الفكرية الإسلامية وبين المنظومة الفكرية الغربية، لأننا نختلف معهم في مصدر القيم، نحن كمسلمين نعتقد بأن مصدر القيم هو الله تبارك وتعالى، من خلال القرآن الكريم وما جاء عن الرسول محمد (ص) وأهل بيته الأطهار (ص)،

أما في الغرب فقد جعلوا مصدر القيم الإنسان وتعاملوا مع الإنسان على أنه أصليل في هذا الكون ولم

يتعاملوا معه على أنه وكيل،

أما الإسلام فيرى أن الإنسان مستخلف وليس أصيلا، ونحن نأخذ القيم ممن استخلفه وهو الله تعالى.

حينما رأوا بأن الإنسان له الأصلة وهو مصدر القيم، فقد رأت المنظومة الرأسمالية أن كل ما يحقق كسباً وربحاً يكون قيمة، ويرى الاتجاه المادي أن كل ما يحقق مصلحة قيمة،

ولذلك يتحول التبرج والسفور إلى قيمة حين تستخدم المرأة للدعاية والإعلان والإغراء، بينما نحن كمسلمين نرى أن هذا سلوك سيء ومشين لأننا نعتقد بالقرآن الذي أمر بالستر والعفاف والحياء والخشمة والحجاب،

لذا فإن من الضروري اليوم ومع هذا العالم المنفتح الذي تقدم فيه مختلف المفاهيم على أنها قيم يجب أن نعرض كل ما يقدم لنا على معيار الدين لنرى إذا كان يتناسب مع الدين أو لا.

مثلاً لدينا قيم مشتركة عند كل العقليّة مثل قيم الحرية والصدق والعدل والأمانة فهي قيم عند كل المجتمعات، ولكن في تفاصيلها يجب الرجوع إلى الدين، فحين يقدم لنا الغرب الحرية كقيمة علينا ولكنه يقدم الحرية المطلقة دون ضوابط فيسّـوق شرب الخمر والسفور على أنه حرية

أما في الإسلام فهذا أمر مرفوض لأن الحرية في الإسلام مقيدة بالشرع والقانون والعرف، لأن الحرية بلا قيد تلغي الفرق بين الإنسان والبهيمة،

ونعود إلى العقل لتقييد الحرية أيضاً، وفي مثال العدل نحتاج إلى الشع وأحياناً لنتعرف إذا ما كان هذا الأمر هو من العدل أم ليس من العدل، فالمنبع الأصيل للقيم هو الدين (ذلك الدين القائم).

أهمية التربية القيمية

من الضروري أن نربي أبناءنا على القيم قبل أن نربيهم على السلوك الخارجي الطاهري علينا أن نغرس القيم في الأبناء، وحين نستخدم مفردة (الغرس) التي يستخدمها المزارعون لأن غرس القيم تشبه عمل المزارع تماماً، فالزراعة يضع البذرة ويثبّتها في الأرض ويتعاهدها بالسقاية والرعاية فكذلك القيمة، والقيم أيضاً تحتاج إلى أن نزرعها في الأبناء ثم ثبّتها ونعزّزها ونرعاها ونعتنّ بها، حتى ينشأ

الإبن على قيم المصدق والإيمان والتوجيد وحب الله واحترام الآخرين والتواضع والعدل فكل هذه قيم، فكل سلوك الإنسان هو ترجمان لقيمه، السلوك أثر من آثار وجود القيم.

القيم والتغيير

القيم هي المنطلق لسلوك الإنسان، ولذا حينما تريد أن تعدل أي سلوك لأي إنسان أو لأي مجتمع لا بد أن تعدل الفكر، وهذا مما نستفيده من قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم).

إذا لم تتعدل القيم لتصبح سليمة و نزيهة فلا يمكن أن يتعدّل السلوك، لأن السلوك تبعً للقيم.
لهذا ندرك سبب عناء المربين في المؤسسات التربوية،

فحين نرى الجهد الذي يبذله المدير والموجه والمرشد في وضع العقوبات لضبط سلوك الطلاب ولكن تستمرة الشكوى من الفوضى والمشاغبة وعدم احترام المعلم وهنا تدرك أن هذه الإجراءات التي تمارسها الإدارة لا تؤتي ثمارها لأن الخلل في القيم، فلو أن هذا الطالب تربى على القيم منذ طفولته، تربى على قيمة احترام النظام واحترام المعلم والمدرسة، ف تكونت في داخله قداسة للنظام والمعلم والمدرسة لانعكس هذا على سلوكه،

ولكن إذا نشأ الطفل في بيئه تسخر بالمعلم فهو يسمع النكات التي تطلق يوميا على المعلم ويسمع طرف عن المدرسة وسخرية بالنظام التعليمي بالنظام العام فكيف تتوقع أن يصبح سلوكه؟!

لذا حين نرى طفلا يطأطئ برأسه احتراما للمعلم فلن قيمة احترام المعلم قد غرست فيه فيما لم تغرس في داخل طالب آخر، ولهذا كل هذا الصراخ والتهديد لن يؤثر شيئا على سلوك الطلاب ما لم تعدل القيمة.

القيم و تقدير الذات

و حين نرى بعض المثقفين يحاول أن ينشر ثقافة القراءة في المجتمع فيهيو الكتاب ويوفره بسعر زهيد ومع ذلك لا تجد من يقبل عليه، لأن المشكلة ليست في عدم توفر الكتب أو سعرها.

ولكن المشكلة في عدم غرس قيمة القراءة ومحبة العلم وقيمة النزوع إلى الكمال، وغياب قيمة تقدير الذات التي تدفع الإنسان إلى التكامل بذاته والسعى بتربيتها وتنقيتها وترقيتها في سلم الكمال. لذا

من الضروري أن نربي على القيم قبل أن نربي السلوك،
القيم أولاً ثم السلوك، لأن القيم هي التي تطبع سلوك الإنسان و تجعله سلوكاً صحيحاً.

■ متى نبدأ في غرس القيم في الطفل؟

تبدأ التربية على القيم منذ الولادة، بل قبل ذلك، لذا تجد في الإسلام آداب قبل الزواج (اختاروا لنطفكم فإن العرق دسّاس)، هذه تهيئة الأرضية لغرس القيم، و في أيام الحمل مثلاً تكثر الأم من تلاوة القرآن و ذكر الله، وبعد الولادة نجد استحباب الأذان في أذن المولود، لكي يبدأ التعلق بها تعالى.

لقطة الحكيم ونموذج قواعد التربية القيمية

يمكن أن نستفيد قواعد التربية على القيم من خلال الآيات القرآنية التي حكت الصورة التي عرضت للقمان الحكيم رضوان الله عليه وهو يعطى ابنه، من خلال شخصية لقطة وأسلوب والقيم التي استخدمها في موعظته.

■ هناك قواعد وفوائد عديدة يمكن أن نستفيد منها من هذه الآيات ومنها :

القاعدة الأولى

أن غرس القيم هي مسؤولية ملقة على عاتق الوالدين في الدرجة الأولى، نعم غرس القيم هي مسؤولية مشتركة بين البيت والمدرسة والملعب والمسجد، ولكن المسؤولية الأولى هي على الأسرة والوالدين والأب، وليست مسؤولية الأب منحصرة في الإنفاق والإطعام والإلباس.

القاعدة الثانية

لا بد لهذا الأب أن يكون ممثلاً بهذه القيم التي يريد زرعها لأن أهم أداة للغرس هي القدوة. لذلك حين عرض القرآن الكريم شخصية المربى عرض شخصية عبد صالح وحكيماً و هو لقطة ولم يعرض شخصية عادية غير ملتزمة بما تحت عليه، بل هي شخصية تربى بسلوكها قبل أن تربى بكلامها.

القاعدة الثالثة

أن على الأب الذي يريد أن يغرس قيمًا تربوية أن يمتلك وعيًا تربويًا ولا يكفي أن يكون إنساناً مؤمناً صالحًا بل لا بد أن يكون واعيًا بأساليب التربية المطلوبة، ولهذا قبل أن يسرد القرآن الحكم التي قالها لقمان ذكر (ولقد آتينا لقمان الحكمة)،

والحكمة وضع الأمور في مواضعها، والحكمة تقتضي تعيين الأسلوب المناسب لغرس القيمة لدى الإبن، هل هو أسلوب القصة أم الأسلوب المباشر أم الأسلوب الغير مباشر أم أسلوب ضرب المثل؟ كيف أتعامل مع الفروقات بين هذا الولد وذاك وكيف أتعامل مع هذه البنت؟ وكيف أراعي التغيرات التي تحدث في البيئة؟ ف التربية طفل قبل عشر سنوات قد تختلف عن تربية طفل اليوم. وتربية الماضي تختلف عن زمن الميديا، ولذا قد يكون الإخوة متماثلين في الماضي أما اليوم لا يمكن الحكم على شاب أو فتاة من خلال عائلته أو من خلال أخواتها باعتبار التماثل فالتماثل ليس واقعياً اليوم في ظل تعدد القنوات التربوية المؤثرة في داخل البيت الواحد.

ولقد أصبح امتلاك الوعي التربوي اليوم متاحاً في ظل توافر وسهولة الوصول إلى المعلومة وتوفر المستشارين التربويين.

القاعدة الرابعة

المبادرة إلى غرس القيم، لا تنتظر أن يصدر سلوك خاطئ من الطفل لكي تتحرك لتعديلاته بل بادر لغرس القيم قبل ذلك، ولا تنتظر أن يسألك ابنك لكي تقوم بتوجيهه، لا تنتظر أن يقع في مشكلة لكي تتنشله، القرآن يخبرنا أن لقمان لم ينتظر أن يسأله ولده بل هو من بادر بالتحقيق وغرس القيم (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعطيه).

القاعدة الخامسة

أن يكون غرس القيم بأسلوب� الإحترام والتقدير، بالتالي هي أحسن، الأسلوب الخشن والفظ لا يناسب غرس القيم بل ينفر الآباء ويدفعهم ولهذا استخدم معه تعبير (يا بني) وهذا التعبير فيه إشعار بالحنون والعاطفة الأبوية، يشعره بأنه لهذا الأب حريص عليك وينصحك لأنك تعنيه وتنسب إليه، فالإبن إذا نودي بألفاظ نابية ووجد خارج المنزل من يقدرها ويناديها بأجمل العبارات فسيجد ذاته خارج المنزل، في حين أن البيت أولى بأن يحترمه ويحترطه حتى وإن أخطأ فلا يرفضه فيستقبله الشارع، ولهذا نجد لقمان الحكيم يكرر في مواضعه هذه العبارة التي توحى بالاحترام (يا بني^٣).

التنوع في الأسلوب، فتارة يستخدم الأسلوب المباشر: (لا تشرك بـ)، وأخرى يستخدم أسلوب ضرب المثل: (يا بـ نـ دـ يـ إـ زـ هـ إـ نـ تـ لـ مـ ثـ قـ الـ حـ بـ هـ مـ نـ خـ رـ دـ لـ فـ تـ كـ نـ فـ يـ صـ خـ رـ رـ أـ وـ فـ يـ السـ مـ مـ اـ وـ اـ تـ أـ وـ فـ يـ أـ لـ أـ رـ ضـ يـ أـ تـ بـ هـ إـ نـ الـ لـ لـ طـ يـ فـ خـ بـ يـ رـ).

فحين يريد المربي غرس قيمة الصدق في الطفل فعليه أن ينوع في الأساليب فتارة يعرض الفكرة بشكل مباشر ومرة من خلال قصة وثالثة من خلال مشهد تمثيلي، ورابعة يستخدم ضرب المثل، وهكذا، فالتنوع في الأساليب أمر مطلوب.

القاعدة السابعة

ترتيب جدول القيم بحسب الأولوية والأهمية، فحين تخصص شهراً لغرس قيمة معينة وشهر آخر لقيمة ثانية فعليك أن تبدأ بالأكثر أهمية.

وأول قيمة بدأ بها لقمان هي قيمة التوحيد: (يا بـ يـ لـ تـ شـ رـ كـ بـ إـ نـ الشـ رـ كـ لـ ظـ لـ مـ عـ ظـ يـ مـ)، وفيها إشارة إلى أنك حين تنهي ابنك عن أمر ما فينبغي أن توضح له العلة والفلسفة وراء نهيك لأنه سيسؤل عن سبب نهيك له، من الخطأ أن تقول له: أفعل ما أقوله ولا تسأل عن السبب.

الظلم قبيح والظلم حين يكون في علاقتك بـ تبارك وتعالى، وهنا هو يركز لدى ولده التوحيد لأن كل انحراف فكري أو سلوكي أو أخلاقي سببه البعد عن الله والشرك بـ، الشرك العملي، عبادة الطاغوت أو الهوى أو عبادة الذات أو عبادة الدنيا والأموال، كل القيم تتفرع من التوحيد، ومن أسباب انهيار القيم الابتعاد عن طريق الله وضعف العلاقة بـ تبارك وتعالى،

وكما تقدم بأن منبع القيم الصافية هو الدين فإذا ابتعد الإنسان وأعرض فسيأخذ القيم من مصادر أخرى غير المصدر الذي يريده الله تعالى ولذا لا بد من تركيز قيمة التوحيد ومحبة الله، تحدث مع ولدك عن الله تعالى وعن عظمته ونعمته وعن وجوب شكر المنعم حتى ينطلق في عباداته السلوكية من حبه لله، من الخطأ أن نربى أبناءنا على الصلاة مباشرةً فقبل ذلك لا بد أن نغرس الارتباط بـ تعالى ولهذا نعاني من صعوبة في التدريب على الصلاة لأننا لم نخلق قيمة التعلق بـ وقيمة التوحيد في سنوات الطفولة، ثم قيمة استشعار حضور الله تعالى واطلاعه وأن الله يراه، لأن الإنسان يعصي لأنه يغفل عن حضور الله ويراقب الناس

ويختبئ منهم و يغفل عن حضور الله

و لهذا لقمان يقول: (يَا بُنْدَيْ إِنْ هَـا إِنْ تَكُ مِثْقَالٌ حَبْـةٌ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ).

فلا تظن أنك وحدك حين يشاهد في جوالك أو حين تكون مع صديقك لوحدهما، ولا تضمر في قلبك سوء و تظن أن الله لا يعلمه! إن الله أقرب من حبل الوريد، (أيحسب أن لم يره أحد؟! ألم يجعل له عينين؟!) هل الله الذي منحك هاتين العينين التي تبصر بهما لا يراك؟! (هو السميع البصير).

الحسين (ع) في ظلال التربية القيمية

حين أتي شاب إلى الإمام الحسين (ع) واستكى له تعلقه بالمعصية قال له اصنع خمسا واعصر الله ما شئت، فقال: ما هي؟! قال: لا تأكل من رزق الله واعصر الله ما شئت، قال: من أين آكل والرزق كله من الله، قال: أما تستحي أن تأكل من رزقه وتعصيه؟! قال: لا تمش في أرض الله واعصر الله ما شئت، قال أين ذهب و الأرض كلها الله؟! قال: أما تستحي أن تمشي على أرضه وتعصيه؟! قال: اذهب إلى مكان لا يراك الله فيه واعصر الله ما شئت، قال: لا يوجد مكان لا يراني فيه الله؟! قال: أما تستحي أن تعصيه وهو ينظر إليك؟! قال: الرابعة إذا جاءك ملك الموت فادفعه عن نفسك، والخامسة إذا جاءك زبانية جهنم ليأخذوك إلى النار فخلص نفسك منهم. ققام الشاب تائبا بعد أن أيقظ الإمام الحسين (ع) فيه الشعور بحضور الله ومراقبة الله وغرس فيه قيمة شكر المنعم. فمن الخطأ أن نري أبناءنا على مراقبة الناس بدلا من مراقبة الله.

فلقمان الحكيم بدأ بتوحيد الله تعالى ثم قال (يابني أقم الصلاة) لأن الصلاة سلوك يأتي بعد العلاقة بما الله وبعد استشعار حضور الله ،

وهو يربى ابنه على تحمل المسؤولية في المجتمع من خلال حثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو يصارحه بأنه سيلاقي المصاعب في طريق إصلاح المجتمع الذي سيتعارض إصلاحه مع ما يريده الكثير منهم، ولذا ينصحه بالصبر على ما يصيبه في هذا الطريق (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور).

وبعد أن تعامل لقمان مع القيم الدينية تعرض إلى القيم الاجتماعية (ولا تصعر خدك للناس) اغتراراً بأبيك وبمكانة أسرتك (ولا تمش في الأرض مرحماً إن الله لا يحب كل مختال فخور)،

فحين أراد غرس قيمة التواضع ربطها بمحبة الله تعالى لأنه كان قد بنى جميع قواعده القيمية على محبة الله وتوحيده والإخلاص له، (وقصد في مشيك وأغضنه من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير).

■وهكذا كان الإمام الحسين (ع) نتاج التربية القيمية الوعائية التي تلقاها من جده محمد (ص)، ولذا كان أساس هذا المجد والعزّة التي نقرأها في يوم عاشوراء هو البيئة وهذه الأسرة التي تربى فيها الإمام الحسين (ع) تعلم الإيمان من رسول الله (ص) وغرس فيه تحمل المسؤولية في حادثة مباھلة نصارى نجران وجعله شاهداً من الشهداء على معاہدة الطائف، وغرس فيه قيمة العزة والكرامة (هيئات مذماً الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله، والمؤمنون، وحجور طابت وظهرت).

وغرست في نفسه فاطمة (ع) حبَّ الناس حين سألها الحسن (ع): لم تدعين لغيرك ولا تدعين لنفسك ■فقالت: (الجار ثم الدار).